يقظة

بقلم ضياء الشرقاوي

في أطراف السماء البعيدة سحب قاتمة ثقيلة تتراكض ناشرة أجنحتها الرطبة . تتعرق فتبدو مثل قطع سود تحدق بعريسة ، وتتلاحم فتبدو كحائط سميك تختفي خلفه الشمس التي تصعد السماء بأقدام من الارهاق والاعياء . وكان هو واقفا ، وقد أوسع مابين ساقيه كأنه يثبت نفسه تثبيتا قويا فوق ارضه ، أرضه هو ، كأن عضوما اقوياء يصارعونه ، ويريدون القاءه بعيدا عنها . يريدون اقتلاعه اقتلاعا . وقد لصقت قدماه اخريطتان الخشنتان بالارض وعاصتا قليلا في الطين الرطب . وبرزت عروق كثيرة منتفخة مخيطة حول ساقيه وساعديه مثل الاسلاك التي لفها هو حول خيزرانه لتربطها تماسكا وصلابة وقوة . وتحسس صدريته الحديد بكفه ، ورمقه بلذة وسعادة . واحس كأن هذه الثياب الجديدة التي اشتراها منذ فترة قصيرة تدود عنه برد الدنيا كلها وقسوة الشتاء ، بل ، تعلن للناس في كبرياء واعتزاز انه صار من الناس ، يراوده هذا الاحساس بعموض . كيف تعلن هذه الثياب انه صار من الناس ؟! . الم يكن منهم قبل ذلك ؟ . وتلل ابتسامة رطبة عميقة شفتيه الجافتين كلما شعت هذه الخواطر كيانه . وسمرته تلتصق التصاقا عدنا بسمرة ارضه . كأنه جزء منها ، ابن لها . كأنه نبت منها . خرج من أحشائها . ولم يكن ذلك الاحساس غريبا عليه هو الذي عمته سواعد هذه الارض منذ صغره مثل ملايين من حوله . ام كثيرة . واحد قامته يرتفع وينخفض بقوة ، قوة حنون . كان كثيرا هائلة في جوف أرضه يريد استخراجها ، كثيرا مخيفة . كانت ضرباته مملوءة بالثقة ، بالاخلاص المتزايد ، بالتفاني . ان أرضه لن تعيش الا بهذه الضربات القوية . وقلبه يخفق كأنه يمنحه مزيدا من القوة والاخلاص والحياة . ويحس بخفقات قلبه تتسرب الى كل جسمه فتسري الى قامته وتتدفق الى أرضه لتضمرها بالحياة ، بمزيد من الحياة . وحينما همس لنفسه أنه لم يكن مخلصا لهذه الارض قبل ان يملكها ، حينما كانت في حوزة الباشا ، عمره الخجل والاسى . وهب في عنفوان يدافع عن ولائه لها . وانه كان دائما أبدا وفيا مخلصا منذ صغره الى صدرها الدافيء أبدا . انه يحس بل يؤمن بأن صدرها دافيء دائما ولو أغرقتها مياه الترعة في عز الشتاء . وابتسم مرة اخرى لهذه الاشياء الجديدة الكثيرة الحلوة ،

والغامضة في بعض الاحيان ، التي يفكر فيها ، والتي تشرق في رأسه دائما رشيقة ناضجة حية مثل صغار السمك الذي يعوم على سطح الترعة ، ويجري هنا وهناك بمرح دون خوف من صائد فيلود بالاعماق المظلمة او الاركان الضائعة ، او أسفل صخرة تبدو مثل شبح مقيت ، صغار السمك الذي يبدو كأنه مربوط الى اشعة الشمس ، الى خيوط النور ، تبدو فجاة ، وتهبط ، ثم تطفو ، هكذا افكاره التي تهمس له انه مثل طفل صغير ولد حديثا رغم أعوامه الاربعين ، انه ولد مرة اخرى ، من جديد ، يوم تسلم عقد التمليك من الرئيس نفسه ، وتحول راسه مسرحا لذلك الاحتفال . لمع كل شيء فيه كأنه يحدث الآن ، الآن وليس منذ شهور ، لم يكن لديه شيء جديد يرتديه في ذلك اليوم ، لم يكن لديه غير الجلباب الدنلاب الناصع البياض ، وبه رقعة كبيرة فوق صدره ، وقد انتهى فوق ركبتيه ، وتحته صديري مضعته الايام الكثيرة الحائمة باسمان حادة عليظة فتساءلت خيوطه وتساقط لونه ، والطاقية البيضاء ، وشال ابنه محمد (لفعه) حول عنقه ، و(بلغة) ابنه محمد أيضا أخذها في قدميه ، وتقدم الى الرئيس وبه خجل هائل ، يود ان يعتذر له عن هيئته المزرية ويقول ان هذا كل ماعنده فمادا يفعل والاولاد كثيرون لم يتركوا له شيئا أمامه أو خلفه .. (تسعة أولاد يا سيدى الرئيس .. كل شيء افعله فهو لهم .. نسيت نفسي بل انا لهم .. لهم يا سيدى الرئيس) .. ورمق الناس لحظة ، وكاد أبومحمد أن يهرب ، ولكن احساسا دافقا دفعه دفعا الى الداخل ، تقدم يا سيد عبد الرحمن عبد المتعال بلا خجل ، مم تخجل أيها الجدر القوى المخلص ؟ ، تقدم لتستعد كبرياءك ، لتستعد نفسك من بين هذه الايدى غير المخلصة التي تستعبدك ، ارتج في هذا اليوم في هذه اللحظات ، وارتجف ، كأنه يتلاشى ثم ينبني من جديد ، ثم يتلاشى ، ثم ينبني من جديد هكذا ، الف مرة ، أيها الجدر القوى المخلص ، وصارت روحه أسفل دقنه حيثما يطش الميكروفون بالاشباح التي تحيط به ، انه لم يحس بها اشباحا الا في ذلك الحين فقط ، ودوى اسمه مرة أخرى كالرعد ، السيد المواطن سيد عبدالرحمن عبد المتعال ، دوامة أحدثه أحدا ، وزأر الميكروفون باسمه مرة ومرة قبل ان يتحرك من مكانه ، لم ينادوه باسمه الذي ينادونه به الناس ، أبو صباح ، ، ناس كبار ، كبار خالص ، ينادونه باحترام ، احترام كبير ، وكان في تردده قبل ان يتحرك كأنه غير واثق من أنهم يعنونه ، هو هو نفسه ، وتماكان انسانا آخر ، ولكن هذا الاسم هو اسمه الذي سماه له ابوه يوم ولد ، يوم لم يكن أبو صباح ، اسمه واسم أبيه وجده ، الاسم المكتوب في شهادة الميلاد وعقد التمليك ، كان الورقتين شهادتا ميلاد ، ولد مرتين ، واحس مرة واحدة ببعض شديد لاسمه القديم ، وتقلصت نفسه حينما سمع الحاضرين في الاحتفال يرددون اسمه « أبو صباح » تقلصت في حنق كأنها اصابع عملاق تحنق هذا الاسم البغيض وتمزقه ، بل تسحقه سحقا من الوجود ، وتكورت كفه اليمنى ذات الاصبع المفقود ، الاصبع الذي يذكره بأيام مريرة ، لقد قطع هو هذا الاصبع يوم طلب «للجهادية» حتى لايقتل في الجيش ، في ذلك اليوم أهوى على

الاصبع بساطور دون رحمه . بل في حق . وصاح في ابيه . وفي نعمه ، وفي اشياء كثيرة كان يحس بها تحيط به كالاشباح .

لماذا أذهب الى الجيش وأموت هناك لماذا .. لماذا ؟

هذه الكلمات القليلة هي كل ما استطاع ان يلفظه من داخل كيانه كالثائر كالمجنون . ليس له شيء في هذا البلد في وطنه كله . حتى يذهب ليدافع عنه ويبذل نفسه من أجله . حتى الدهشة لمجرد فكرة الدفاع والذود عن الحمى اي شيء له حتى يدافع عنه ؟ لا شيء .. لاشيء .. ولا حتى لابيه أو لجده ولجد من أجداده الكثيرين . بل كان شعورا عاما يملأ في ذلك الحين وهو ان باقي هؤلاء الاعداء الذين يدعون باسمائه كي يقاتلوا ، حتى يقتلوا الباشوات . عبودية بعبودية لامبالاة . لماذا يدافعون عن أرض الوطن ؟ . لماذا ؟ والباشوات يدفعون البدل ليعفوا من الجيش ويتركوا الأمر لهؤلاء المصنوعين ، الموطونين . وطار اصبعه في ذلك الحين ولم يحس بأي الم في نعمه . بل احس كأنه ينتقم يتشفى . وعندما تقدم من المنصة اكتسحه الخجل والأسى . كان عيني الرئيس تسألانه في صمت عن تاريخ هذه الاصبع المبتورة ـ ولو احتاج في قبضته المتكورة ـ وكأنه سيسأله في صمت أيضا وهل تريدنا ان نمنحك قطعة من الارض انت الذي صممت بنفسك من أجل الدفاع عنها ؟ هل تريدنا أن نمنحك قطعة الارض نفسا لخيانتك ولأصبعك التي قطعتها .

وتألم السيد المواطن مفيد عبد الرحمن عبد المتعال ـ وما زال يرى في رأسه أصوات القوى المدوي الذي انطلق من الميكروفون هادرا كأنه يعلن للناس كلهم اسمه الجديد الذي يعني اشياء كثيرة .. كثيرة جدا . وفوجيء أبو محمد بالرئيس يمد له يده مصافحا . وارتبك عليه أن يمد له يده اليمنى ذات الاصبع المفقودة . كأنه حين مد يده اليه يسلم اليه تاريخا شائنا رديئا طافحا بالظلام والخوف والجبن . هذا التاريخ المظلم الحافل بالاصابع المبتورة الصائمة . واحس بكفه في كف الرئيس . أحس بها فجأة هكذا لاتدري من الذي وضعها في كفه تلقائيا ، في طمأنينة . احساس غريب . كأنه سلم الرئيس كفه بعد ان تبارحت سمرتها . فقد وجد ابو محمد ان الرئيس اسمر مثله . كأنه فوجيء بهذه الحقيقة مفاجأة هائلة . ليس مثل الباشا الذي نصفه تركي وتجري في عروقه دماء اجناس عديدة مختلفة عربية سمرة تهمس في ثقة لمفيد المواطن أن أرضا واحدة هي التي ولدتنا . هكذا شعر مفيد . وربما لهذا وجد كفه في كف الرئيس يتصافحان في اشتياق . في حب .

وانفجر مفيد حينذاك ضاحكا في سعادة واحس باصابعه تتشابك في أصابع الرئيس ، واصابعه تمترج باصابعه كأنهما تمترجان . واحس بورقة بطيئة كبيرة ملفوفة بعناية تملأ كفه . احس بها مثل اصبع كبير نظيف نبت في كفه بدل الاصبع المفقودة .

وضحك مفيد ضحكا عميقا ، وساقت هذه الموجات المتلاحقة من الاحاسيس موجات عالية من القرقرة .

وغمس نظرة في عيني الرئيس كأنه

يبحث عن معاني الغرائب التي لا معرفتها لما فعله عفيد في شبابه . ولكنه لم يجد تأويلا وكان العبيد يقولون له :

ـ عفا الله عما سلف . وضمه الى صدره ضمة قوية والتحما وتراميا كصلاق كبير . لن ينسى عفيد هذا اليوم طول حياته . واسرع بعد ذلك واشترى نفسه لاسرته ، وتركوا البيت الذي يملكه الباشا ، واشتروا ثمانا حديقة لهم حيثما وجدا الناس يبادرونه باسمه «عفيد» .

بدأ يفيق . يستيقظ . واعتدل في وقفته واستند الى فأسه وجذب نفسا طويلا ومسح حدود أرضه بعينيه مسا رفيقا كأنه يتأكد من انهـا لم تنقص شبرا واحدا . وارتطمت عيناه بقادمين من بعيد وانتابه الفضول فدقق النظر ، واحدث ملامحهم تتضح . الباشا ، الباشا الذي كان يعمل عنده من قبل واتحنى عـلى فأسه بسرعة كأنه يخفي نفسه .. ولولاء الخجل . وانعصرت كبرياؤه . لم يختفي؟ . ولم يختفي ، فعاد وانتصب كأنه يريد أن يبدو له ولرفاقه عملاقا ، أكثر عملقة . ودفع بساقيه الى الامام ، كأنه يقول :

ـ انا هنا . انا هنا . وهـذه ارضي ..

وجذب الباشا السابق لجام حصانه فتوقف هو ومرافقوه على بعد خطوات قليلة من عفيد وقال بجفاء :

ـ ولد يا أبو صياح ، لماذا لم ترسل امرأتك واولادك كي يقشروا الذرة ؟

فشدت أصابع عفيد حول يد الفأس بقوة ، وعضت ، وصاح :

ـ أبو صياح هذا كان زمان ـ كان ايامكم يا حضرة ...

فصرخ الباشا :

ـ اسكت يا كلب .

ورعق مرافقوه :

ـ هل ترد على الباشا يا ابو صياح ؟

فصاح عفيد :

ـ أبو صياح هذا كان ايامكم . . هل تفهمون ؟

ودق الارض بفأسه كأنه يتحداهم . وتساءل أحد المرافقين ساخرا :

ـ وما اسمك الآن يا سيدي أ . حضرة العمدة ...

ورعق عفيد بأعلى صوته :

ـ الرئيس ، الرئيس نفسه ، نادوني بالسيد المواطن .

فقاطعه الباشا قائلا :

ـ لا بد انه لم ير اصبعك المقطوعة .

وكان كل السحب السوداء القاتمة التي تملأ السماء ملأت عينيه في تلك اللحظة ، فاهتز في موقفه وشدد قبضته على الفأس . كان ضربة قوية غادرة عاجلته من الخلف . واحس كأن أصبعه المبتورة أخذت تقطر دماء احس كأنه هو كله أصبح مبتور . وانطلق يصيح :

انا اسمي عفيد عبد الرحمن عبد المتعال .. السيد المواطن عفيد عبد الرحمن عبد المتعال .

ـ أبو صياح هذا سيريكم من هو ؟ امرأة عفيد واولاده أسيادكم .

لهم الباشا !

ـ والله عال .. هل ستهدم بدبابا باصبعك المقطوعة ؟

وانطلق ومرافقوه ، ودمدم عفيد .. ودق الارض بقدمه في ثورة .. ووود لو ينطلق ويقضي عليهم بقدمه، بل يسحقهم سحقا .

ـ سيريكم ابو صياع ماذا سيفعل ؟

***

عندما اشتعلت معركة بورسعيد .. كان هناك عملاق ربعي كفه اليمنى ذات أصبع مفقودة .. مشدد على بطله فوق الارض ينظر الاعداء بالرصاص بشدة واصرار وثقة .. وبه احساس أنه بقي بوعد .. به يرد دينا كبيرا كان عليه .. انه يدافع عن شيء له ، عن ارضه ، ارضه هو .. احساس هائل يملأه بأن رصاصه وهو في بورسعيد يملأ سماء قريته .. يملأ قصر الباشا . يملأ آذان الناس جميعا .. وان اولاده الآن فخورون . وان كلمة «أبو صياع» تعني انه هو الذي قاتل في بورسعيد بشجاعة . وانه هو الذي يستطيع أن يفعل كل شيء .. وانه هو الذي يدافع عن وطنه الآن ، هو الذي هرب من الدفاع منذ سنوات ، أي أنه صار شيئا ، شيئا كبيرا عملاقا قويا وانه هو واولاده هم هم الذين يمتلكون الارض . وان لهم الحق كل الحق في ان يكونوا اصحابها . وعندما احس بدم دافيء يسيل كفه ورأى هذا الدم يمتزج بالتراب الاسمر أمامه احس بمزيد من الشجاعة ، من السرور ، وببساطة وضع فوق جرحه حفنة من التراب . وحينما التفت اليه حاره قائلا

لقد قضينا على الدفعة الثانية من جنود المظلات .

ابتسم عفيد من اعماقه وهزته ابتسامته واحس بثقة متزايدة بانه يستطيع ان ينتصر بالرغم من اصبعه المفقودة ، وان ينتصر الى الابد . ورفع يده اليمنى ليحملق في اصبعه المفقودة وبه شعور جامح ان اصبعا عملاقة كبيرة حلت مكانها وسأله زميله :

ما اسم سيادتك ؟

ـ عفيد عبد الرحمن عبد المتعال .

اهلا وسهلا ياسيد عفيد .

وامتلأ كيانه بملاءة هائلة واجال بصره في السماء بتحد وثبات وطمأنينة وقوة ، وردد في نفسه :

اهلا وسهلا بك ياسيد عفيد .

وضغط على كلمة ، يا سيد ، بقوة وثقة وسعادة .